محمود العسكرى

«لماذا أنا مجنون؟».
(اسم رواية لم تكتمل لمحمود العسكرى)

حاول محمود العسكرى أن يدون تاريخ حياته فى رواية «لماذا أنا مجنون؟» لكن زحمة الحياة ومعارك النضال السياسى والنقابى وانتزاع لقمة الخبز حرمته وحرمتنا من متعة استكمالها.

ويتخذ العسكرى فى هذه الرواية أو فى مشروعها اسم «خيرى» ويحكى لنا حكايته: «الأبوان فقيران نزحا من ريف مصر إلى القاهرة بحثا عن لقمة خبز، عمل الأب فى سكك حديد الحكومة المصرية (هكذا كان اسمها لأنه كانت توجد خطوط سكك حديد غير حكومية مثل الدلتا والفرنساوى) لكن الأب يشارك بحماس فى ثورة ١٩١٩ فيصدر قرار بفصله وظل مفصولا حتى مات. وكالعادة دخل «خيرى» الكتّاب، لكنه يتمرد فيرفض عقاب الشيخ المتكرر ولأن «الألفة» وهو واحد من تلاميذ الكتاب ينوب عن الشيخ فى متابعة حفظ التلاميذ للقرآن، وينوب عنه فى ضرب من يستحق العقاب كان يضطهده، فقد جمع خيرى مجموعة من التلاميذ وترصدوا «الألفة» خارج الكتاب وضربوه علقة ساخنة. وانتهت علاقته بالكتاب. ويدخل المدرسة الابتدائية ويتسلط على أبيه حلم أن يصبح الابن ضابطاً. وبعد أن يحصل محمود على الابتدائية أخذ يعمل فى ورشة ميكانيكية نهاراً ثم يدرس بالقسم الليلى فى المدرسة الثانوية. لكن الحياة تطحن بقسوتها كل الأحلام. والفتى المتمرد يساعدها على ذلك فالمدرس يأمر التلاميذ بشراء كتاب خارجى غالى الثمن ويتصدى له الفتى ويضربه فيفصل».

ولنترك «خيرى» لنواصل مع محمود العسكرى رحلته النضالية التى بدأت باشتغاله فى شركة «النسيج والحياكة المصرية» ويزداد المتمرد تمرداً فيقود إضرابا لعمال المصنع

ليذوق طعم النضال النقابى ويتخذ منه سبيلا لنضال لا يهدأ. وفى عام ١٩٣٧ يصبح عضوا فى مجلس إدارة نقابة نسيج الحرير والنسيج اليدوى. وفى عام ١٩٣٨ ينتخب عضوا فى مجلس إدارة النقابة العامة لعمال النسيج الميكانيكى وملحقاته بالقاهرة. وفى ١٢ يونيو ١٩٣٩ فوجئ سكان القاهرة بمجموعة من العمال تفترش مساحة من ميدان العتبة معلنين إضرابا مفتوحاً عن الطعام احتجاجاً على تأخير صدور التشريعات العمالية، وفى مقدمتها قانون الاعتراف بالنقابات. وكان محمود العسكرى هناك جنبا إلى جنب مع محمد يوسف المدرك وعديد من المناضلين النقابيين.

وفى عام ١٩٤٣ اعتقل العسكرى بقرار من الحاكم العسكرى مصطفى النحاس باشا. والسبب مثير للدهشة؛ فقد نظم العسكرى إضرابا لعمال النسيج احتجاجا على تعيين فؤاد سراج الدين وزيراً للشئون الاجتماعية (وهى الوزارة المختصة بشئون العمال) بدلا من وزير محبوب من العمال هو عبد الحميد عبد الحق. وتجرى الانتخابات النقابية وهو فى المعتقل لكن العمال لم ينسوا قادتهم فينتخبونه سكرتيرا عاما لنقابة عمال النسيج. ويبدأ السجل النقابى الحافل.

- ١٩٤٤ يشارك فى تأسيس مؤتمر نقابات عمال الشركات والمؤسسات الأهلية.
- ١٩٤٥ يصبح عضوا فى اللجنة التحضيرية لمؤتمر نقابات عمال مصر.
- ١٩٤٥ تصدر الحكومة قراراً بحل نقابته (النقابة العامة لعمال النسيج الميكانيكى وملحقاته بالقاهرة وضواحيها).
- وفى العام ذاته يصدر قرار من اتحاد الصناعات بوضع اسم محمود العسكرى فيما سمى «القائمة السوداء» وهى قائمة تضم أسماء العمال الذين يتعين على كل أصحاب الأعمال الامتناع عن قبولهم كعمال فى مصانعهم أو ورشهم.

وهكذا فصل محمود العسكرى فصلا أبدياً كما حدث مع والده. لكن زملاءه العمال منحوه تفرغاً نقابياً فتفرغ للنضال ضد استغلال رجال الأعمال. وفى ذلك الحين يلتقى العسكرى بالمحامى يوسف درويش ومحمد يوسف المدرك زميل إضراب العتبة ويعمل محمود معهما فى «جمعية الشباب للثقافة الشعبية» التى نظمت مدارس لمحو أمية العمال. ويسهم العسكرى فى تكوين لجنة العمال للتحرير القومى» وفى إصدار مجلة «الضمير». ثم تبدأ رحلة السجون.

- يناير ١٩٤٦ يسجن فى قضية مجلة «الضمير» التى اتهم فيها بالعمل على قلب نظام الحكم.

– يوليو ١٩٤٦ قبض عليه بتهمة الدعوة لعقد اجتماع غير مشروع «لأنه دعا مؤتمر نقابات عمال مصر للاجتماع لتقرير الدعوة لإضراب عام ضد الاحتلال الإنجليزى واحتجاجاً على تجاهل الحكومة للمطالب العمالية».

– ١٩٤٨ اعتقل فى أعقاب إعلان الأحكام العرفية. ويبقى حتى ١٩٥٠. ثم يعتقل عقب قيام ثورة يوليو ليظل معتقلاً حتى ١٩٥٦ ثم يقبض عليه فى يناير ١٩٥٩ ليبقى فى السجن حتى ١٩٦٤، إنه المفصول أبداً المسجون دوماً.

وفى غمار هذه الملحمة كان واحداً من أربعة أسسوا تنظيما شيوعياً اتخذ أسماء عدة، وهو ما طالعنا مسيرته فى حديثنا عن صادق سعد ويوسف درويش والمدرك وغيرهم.

.. أما أنا فأتذكره عندما كنت طفلا لم أزل وساقونى إلى معتقل هايكستب كان هناك أصحاب ملابس أنيقة يزهون بها فى تباه، أما هو وزميلاه عبد الفتاح الباجورى وعبد الغفار الزعفرانى فقد تحدوا الجميع بلباس من الدمور ولا شىء آخر، وعديداً من المرات شاهدت حوارات بين العسكرى وزملاء المنظمات الأخرى، كان يجلس ويتحدث فى كبرياء قائلاً «إننا نرى» فباغته أحدهم عن عمد «أنتم من؟». فيقول العسكرى «نحن» (أليس قائدا فى التنظيم الذى يرفض البوح باسمه).. وهناك أطلقوا عليه وعلى زملائه اسم «نحن».

وعندما أفرج عن العسكرى مع جميع الشيوعيين عام ١٩٦٤ تقرر منحه عملا بسيطا فى أقاصى الصعيد فرفض الابتعاد عن شبرا الخيمة ولكن الأسد لا يعدم فريسة كما قال جمال الدين الأفغانى. فأخذ يحاضر فى النقابات وكتب فى مجلة «العمال» سلسلة من المقالات عن تاريخ الحركة العمالية المصرية. ويواصل العسكرى معاركه ففى انتخابات ١٩٧١ يجمع رجاله من العمال ليساندوا المرشح القبطى إسكندر صليب تحديا لحملة إخوانية ضده، ثم أمعن فى التحدى والتمسك بشعار الوحدة الوطنية فانضم إلى جمعية مسيحية فى الحى. وعندما تأسس التجمع ظل يطل علينا من بعيد. يتعاون، يجامل، يحضر الندوات، يتحدث فيها لكنه لم ينضم إلينا.. ربما لأننا لسنا حزبا بروليتاريا خالصا. ولكن اتفاقيات كامب ديفيد وما صحبها من حملات عنيفة على التجمع ورجاله أتت به إلينا وحرر استمارة العضوية قائلا: «ما دام فيه سجن ومعركة لازم نبقى موجودين». ثم نظر إلىّ تأملنى طويلا وقال: «ياه. فين أيام زمان سنة ١٩٤٩ لما أنا كنت شاب وأنت كنت عيل»؟ وفى العام ذاته ١٩٨٧ قرر أن يرشح نفسه لانتخابات مجلس الشعب، وفيما أشجعه على أن يستكمل أوراق الترشيح وصلنى نبأ رحيله.